قصة مصرية

رجـــــــــــاء

— ١ —

آه . . . آه . . .

صرخة تنوقلت بين الأنواء والأسماع ، أوقفت الفتاة عند سماعها السيارة ، وتلفتت ، ثم حدقت ببصرها ، ثم اكفهرت وغضبت ، ثم تركت السيارة وتقدمت بخطأ سريعة نحو هذا الذى كاد يذهب ضحية سوء تصرفه ، وقالت زاجرة : — « أنت أعمى لا ترى ؛ أم أصم لا تسمع ؟ » فطأطأ رأسه ولاذ بالصمت اعترافاً منه بالخطأ والتماساً للمعذرة لديها ، وعندئذ أدركت الفتاة علائم البؤس والشقاء منقوشة واضحة على وجه الفتى ، وفى عينيه المتكسرتين ، فمالت إليه وقالت فى رقة متناهية :

« مالك يافتى ؟ أتشعر بألم ؟ . . . » فاكتفى برفع نظره إليها ، معبراً أصدق تعبير عما تضم جوانحه من الأسى ، وكان الناس كبيرهم وصغيرهم ، جاهلهم وعالمهم ، قد اجتمعوا فى سرعة غريبة وأحاطوا بمكان الحادث فى شدة وكثرة ، وتصاعدت الأصوات وتبودلت الاشارات : بين لائم عليه ، وشاكر لها ، وبين ساخط عليها وناصر له ، ورجل البوليس ، يتكلم كما يتكلمون ، ويشير كما يشيرون . واشتدت الضوضاء ولج النزاع حتى كان يظن الرائى أن فى الأمر خطباً جللا ، وماهى الأمر من شىء ! ولم تتوان الفتاة عن دفع الفتى إلى السيارة ، وولت مسرعة رغبة فى استشارة أحد الأطباء ، وما زال الناس فى نزاعهم وصراخهم يلجون : بينما الفتى والفتاة صامتان لا يتكلمان .

— ٢ —

« ليلى » فتاة عصرية لها كل ما للفتاة العصرية من حقوق وواجبات وصفات ومميزات : فهى تقود السيارة ، وتعرف الموسيقى ، وتتدرب على ركوب الخيل ، والسباحة ، وتلعب التنس ، وتتكلم عدة لغات ، ولا تخلو ليلة لها من سهرة جميلة ، فى مسرح ، أو سينما ، أو حفل عام . هى تلتمس الحياة فى النور ، والنور فى الحرية ، والحرية فى المساواة ، والاختلاط إلى أبعد حدود المساواة والاختلاط .

« ليلى » من سلالة عريقة الحسب والنسب ، ورثت عن والدها مالا كثيراً ، وعقارات عدة ، فهى غنية واسمة الغنى . تعيش مع والدتها عيش رخاء وهناءة . ولم يكن لها من الأهل غير قريب واحد ، تحصل العلم فى إحدى الجامعات الغربية . وقد وهبها الله من صفات الملاحة والحسن ماجعلها آية من آيات الحب والخيال ، وأحلها مكاناً سامياً فى قلوب الرجال ، ورغم كل هذا فهى فتاة وكفى !

— ٣ —

كان الوقت قبيل الغروب ، والسيارة تنهب الأرض مسرعة فى طريقها إلى الأهرام . وعند سفح الهرم الأوسط أوقفت ليلى السيارة ، ودفعت الباب فاندفع ، ثم تقدمت والفتى يتبعها فى صمت وسكون ، وارتقت بضع صخور فى خفة ولين ، وهو يأتى ماتأتيه من غير اعتراض أو تفكير ، حتى تخيرت مكاناً يشرف على مغرب الشمس . فجلست تتحسس محاسن الغروب ، الى أن اختفى القرص بتمامه ، فوجهت نظرها إلى الفتى ، فاذا به يقف صامتاً شاخصاً إلى الأفق المخضب ، وقد اغرورقت عيناه بالدموع ، واتشح وجهه بقناع من الخشوع الرهيب ، فى مثل السكون تبادلا الحديث :

هى — لولا الظروف لكان موتك محققاً اليوم .

هو — (يصعد زفرة طويلة خفيفة) آه . .

— ما اسمك يافتى ؟ . . إن اسمى . . ليلى . .

— (برهة صمت) « رجاء » . .

— اسم جميل شائق ! . .

— للغير . . جماله للغير ياسيدتى . . . وأما صاحبه فقد دفع الثمن غالياً . هو رجاء ضائع

— ماذا ؟ أتتألم الى هذا الحد ؟ . .

— حتى الموت ... الموت ياسيدتى ... ليتك أجهزت على اليوم ... كنت أنهيت حياتى .

— يبدو لى أن أعصابك مضطربة محتاجة إلى الراحة ، أليس لك أهل ؟

— أهل !.. كثيرون ... كثيرون جداً . . .

— إذن فما علة بؤسك ! لو كان لى حق السؤال طبعاً .

— الأهل كثيرون ولكنهم أغنياء ونحن فقراء .. فيجهلوننا .. يجهلوننى ووالدتى المعبودة وأخى الصغير ، كأنهم يخشون أن يخدش ماتحن فيه من بؤس ومترية مايتمتعون به من الجاه والغنى . إن الحياة تعبد الفضة والذهب ، والناس تجرى خلف المظاهر والعظمة الكاذبة . . . والأقدار قاسية . . . فقد مر علينا زمان تمتعنا فيه بما يعدل غناهم ويفوق ، ولكن الوالد

ـ رحمه الله ـ أحب المزيد ، فضارب بخمر ، ثم ضارب بخمر . وفى أيام معدودة أمسينا فى حال تنذر بشر مستطير . . وحل الخراب وعمت الخسارة .. فلم يتحمل الصدمة وانتحر . ونحن فى أشد الحاجة إلى رعايته ومعونته ... أصبحت وحيداً أكفل والدتى المسكينة التى أمنها الألم ، وأخى الذى عرف البؤس وهو صغير . اضطررت أن أهجر الدراسة لأعول نفسى وأعولها ، وحاولت البحث عن عمل ولكن عبثاً حاولت ، فالأزمة تمسك بالرقاب والحظ التعس يرعاها . كانت والدتى تدخر بقية من مال صرفناه ، وكانت تحفظ بعض الحلى فبعناها . وهكذا انقضى العام ونحن آملون فى المستقبل ، ولا يزداد المستقبل إلا ظلمة وحلوكة ويأساً وضيقاً . هذا ، والأهل لاينظرون الينا بعين الرعاية ، ولا يمدون يد المساعدة والمعونة .. أظلمت الحياة فى عينى بعد ما أظلمت حنايا صدرى . . . وعندئذ لم أتوان عن الانتحار ، وقد سبقنى إليه والدى ، تخلصاً من هذا العذاب .

ـ وهان عليك ترك هذه الأم تكلى وهذا الطفل يلاعبين ؟ . ! !

ـ يرعاهما من نفخ فيهما الروح ، فالله خير معين .

أراك تؤمن بالله ، وتقدم على الانتحار ! كيف هذا ؟ هذا التناقض الغريب بين الايمان والالحاد .. لا .. لا .. لا يا عزيزى .. لاتكن ضعيف الارادة إلى هذا الحد .. ثم .. قم فأنت رجل .. قم وتعال معى نتدبر الأمر ؟

ـ إلى أين ؟

ـ إلى منزلنا ... حيث أعيش ووالدتى .. لندبر لك عملا .

ـ آه . . كيف ؟ . فاننا . . .

ـ ها .. ها . . لاتنس أننا فى القرن العشرين ... عصر التقدم والمدنية .. حيا معى فسأقدمك إلى والدى ، كسكرتير الدائرة الجديد ! مارأيك ؟

ـ وكيف أقطع عن غيرى رزقه ؟

ـ اطمئن من هذه الوجهة يا صاحب الشعور النبيل .. فقد ثبتت لدينا خيانة السكرتير الأول أكثر من مرة .

ثق وكن مطمئناً .. إننا ننشد سكرتيراً على شاكلتك ، طيباً عفيفاً أميناً فاضلا .

ـ آه ! . . شكرتك منذ لحظات عند ماحلت موتى على يديك ، إذ كنت أنشد الموت ، وأما الان فانى أشكرك ، لأنك بعثت فى كيانى الحياة . . . فبت أنشد الحياة .

ـ نحن أخوة يارجاء . . . فلا شكر بيننا . . . قد وافقت نفسك نفسى . . . فلنمش معاً ، فتأخذ من زوعى إلى الطرب والبهجة معنى الحياة ، ولآخذ من حزنك وألمك معنى الخلود .

ولكن . . .

وكان الليل قد جلبب الأنحاء بستار من الظلام ، واجترفه شعاع نور قوى ينبع من سيارة تمدوق طريق الفيوم : فشع المكان وأضاء ، وإذا بالصخرة العالية يقتعدها الفتى والفتاة متعانقين ، يتبادلان قبلة العطف والحنان والركون والاطمئنان .

— ٤ —

انقضى عام وتولى ، و«رجاء» فى عمله خير ما يكون المكرتير فى أعماله ، وأحب ما يكون من عماله . توثقت العلاقات طوال هذا العام بين «رجاء» ووالدة «ليلى» ، فأصبح موضع ثقتها ، وأنزلته منزلة الابن من نفسها : وتحسنت حاله أيما تحسن ، وأخذ نجمه يبدو لامعاً خفاقاً فى سماء السعد والصعود ، وحالفه الحظ مبتسماً ، وأضحى « رجاء » فرحاً من خلال ثنايا فتاة أحلامه ، ورضاء أمه عنه ، وحب أخيه له .

قضى «رجاء» و«ليلى» هذا العام رفيقين فى الغدو والرواح ، سميرين فى الليل والنهار ، صديقين على البعد والقرب ، شريكين فى الجد والهزل . وأما الناس — كعادتهم فى مثل هذه الأحوال — فقد أخذوا ينسجون — حول الفتى والفتاة وعلاقتهما البريئة — من الأباطيل ، والقيل والقال ، ما هو دعامة لهذه الحياة ، ولكنهما لم يهتما لشىء ما ، وهذا ما يقضى به العقل لمن أراد حياة طيبة هانئة .

كانت «ليلى» تقر الواقع وتحبه . وشخصيتها مدعمة بهذا الحب . وكان «رجاء» يقر الخيال ويحبه ، ونفسيته مكرسة لهذا الحب ؛ من هذه الوجهة تخالفا ، ومن هذا التخالف توافقا ، فبدا كل منهما فى عين زميله قوياً فى مذهبه ، معتزاً بقوته ، فتعادلت القوتان وتضامنتا على الحياة بهذه العلة : بين الواقع والخيال ، بين الطرب والألم .

العطف والحنان أول مراتب الحب ، الحب الشعرى فى النفوس الشاعرية ، الحب العاصف الذى لا يبقى ولا يذر ، وهذا الحب هو ما استحكم فى نفس «رجاء» ، يزجيه كتمانه وصبره وحياؤه من المكاشفة إلى الاسترسال فى حبه ، والتبسط من «ليلى» إليه . وكانت القبلة داعية هوى وغرام عند الفتى ، وناتجة مسرة وتسلية عند الفتاة ؛ يفهم «رجاء» من القبلة أنها عهد وفاء ، بينما تفهم «ليلى» كما تفهم فتاة العصر ، أنها مطلب زهيد ، مادام الشباب ومادام الطالب ! وعلى هذا الأساس شيد صرح الحب بين رجاء وليلى ؛ فكان واهياً متداعياً من البداءة .

— ٥ —

وكان البدر يتدرج من الحمرة الدامية إلى الباهتة ، فالصفرة الفاقعة ، فالبياض الفضى ، حتى

انتشر شعاعه فى الشرق منحدراً فوق الرمال ، مرتمياً الأهرام ، غامراً الأرض والسماء ، وعلى ضوء القمر بدا شبحان يتبادلان الحديث فى صوت خافت ضعيف .

هو — تذكرين ، ليلى ؟ . . على هذه الصخور وفى مثل هذه الليلة من العام الماضى ، كان اللقاء الأول وكانت القبلة الأولى . . . تذكرين ؟ . . أم نسيت كل شىء ؟ . .

هى — آه . . . هذا القمر . وهذه النجوم . . . على سفح الأهرام . . فوق الرمال . . . هذه الرمال . . فى هذا السكون ، هذه هى الحياة يا رجاء . . آه (تمسك بيده فينسحب عنها) .

— نعم . . . وفوق هذه الصخور عينها . . . سيكون اللقاء الأخير ، يعقبه فراق أبدى . إلى الآن يا ليلى لم أعبر لك عن العاطفة القوية الجامحة التى لا تعرف عقلا ولا قلباً . . . كنت أخشى المستقبل وأخشى الخيبة . . . وأما الآن فانى لا أخشى شيئاً . . وإنى لأصرح لك بمكنون صدرى . . . إنى أحبك . . أحبك ياليلى من كل قلبى .

— وإنى لأعطف عليك وأميل إليك . . .

— لا . . لا . . ياليلى . . . إن رضيت الكذب على نفسك ، فأنا لا أرضاه على نفسى . . إنك لا تميلين إلىّ ، وإنما تطلبين السمير المنادم وتبحثين عنه ، فاذا وجدتيه فى غيرى ملت إليه ومنحتيه كل شىء . . . وتضربين بى عرض الحائط . . . إنك تقابلينى باسمة وتودعيننى ضاحكة ، لأنك فتاة تفهم الحياة فى الضحك والابتسام ، تنشدين البهجة حيثما حلت ، وما هذا العطف والحنان الذى تبدينه سوى مظهر من مظاهر الجبروت والقوة . . . أنت فتاة عصرية تعرف من الحب لذته ، وتجنى ثمرته من غير ألم أو عذاب ، فلا تقرين هذا الحب الشعرى القديم الذى ألاقى فى سبيله الأمرين . . . تساءلت مراراً بينى وبين نفسى عن مدى حبك لى . . . وكان الشك ينتابنى أحياناً فيكاد يزهقنى ، ثم يعودنى اليقين فأهدأ وأستريح ، ولكن . . . ظهرت الحقيقة أخيراً ، واضحة جلية ، ومؤلمة أشد الألم ، عندما حضر هذا الشاب الوجيه الذى يمت إليك بصلة القرابة ، فنسيت به الدنيا وما عليها ، هذا هو من تحبين ومن تخلصين له ، وأما أنا فان أحببتنى فلأنى أذكرك دائما بفضلك على وإحسانك إلى . . . آه . . ليلى . . بالله اعذرينى . . . اعذرينى . . .

— لا أعرف سبباً لثورتك هذه يا رجاء ، وعهدى بك الشاب المؤدب اللبيب . . إن قريبى هذا هو خطيبى . . .

— خطيبك ؟ . . خطيبك ؟ . . الآن قد انتهى كل شىء . . . لا سعادة فى وجود ثلاثتنا . . . فوجب الرحيل على أحدنا توفيراً لسعادة الآخرين ! . . وأولانا بذلك هو أنا . . . الغريب الدخيل .

وعندئذ غلبه البكاء فبكى ، وتقدم إليها فى رفق ولين ، وشعور غريب ، ومال عليها ، ولكنها لمحت فى عينيه نظرة مخيفة ، ففزعت منه ودفعته عنها .. فوقف لحظة صامتاً ثم تراجع إلى الوراء فى ذهول وهو يقول :— « حتى القبلة الأخيرة تحرميننى منها ؟ ثم تدعين حبى ؟ .. لا .. لا ترحمينى وإنما . » وفجأة انقطع الصوت حيث زلت قدمه فاختل توازنه وهوى إلى الأرض ، ومن ثم ارتفعت الصرخات تائهة رهيبة :—

— ليلى .. ليلى ... آه .. آه ..

— آه رجاء .. رجاء ...

ثم عم سكون رهيب وانطوى على نغم عذب جميل ، يحمله الهواء من بعيد ، وكأن لم يكن شىء .

— ٦ —

مات رجاء ! وأسفر التحقيق فى الحادثة عن أنها وقعت قضاء وقدراً ، فجنت الأم وطافت الطرقات فى ذهول وخبل باحثة عن ابنها ، سائلة الناس عنه فى شبه جنون ، حتى ضمها البيمارستان ، وأما الأخ الصغير الذى أبت المصائب والأحزان إلا أن تحوطه ، فقد احتفظت به أحد ملاجىء البر والإحسان ، وفى غضون هذه الحوادث تم عقد قران «ليلى» بخطيبها ، ومن ثم سافرا إلى الخارج لقضاء شهر العسل فى هناءة ورخاء ، متناسين كل شىء ماعدا سعادة الزواج وحياة الشباب .

هؤلاء ضحايا من ضحايا الحياة : من موت ، وانتحار ، وجنون ، وتشريد ، فعلينا أن نقتصد فى عواطفنا وإلا أوردتنا موارد التهلكة من حيث لا نشعر ولا نريد ، ولزاماً علينا ألا نغالى فى الحب والعطف والحنان ، فقد نصل إلى حد من لا يرحم العطف ، ولا يتقى الحب ولا يرق للحنان ، بل يقسو وينور أشد ما تكون القسوة والثورة .

أحمد كامل مرسى

الى حضرات المشتركين

ترجو الادارة حضرات المشتركين الذين لم يسددوا قيمة اشتراكاتهم أن يبادروا بارسالها رأساً إلى إدارة المجلة ولهم الشكر .

باب العزة